الغزل في شعر علي عبدالله خليفة

الاستاذ المساعد الدكتور

جاسم غالي رومي المالكي

جامعة البصرة/ مركز دراسات البصرة والخليج العربي

ملخص

ان الغرض من دراسة الغزل في شعر علي عبدالله خليفة هو لمعرفة مدى التطور في هذا الفن الشعري لديه، ومعرفة مدى تلاقحه مع الشعر الغزلي عند الشعر القدماء. وذلك للكشف عن اتجاهات هذا الشعر الموضوعية وما يطرأ عليها من تطور فني في اغراضه المتنوعة. فحركة الشعر في البحرين أتسعت أتساعاً كبيراً بعدما وجدت دور النشر والمطابع التي ساهمت في نشر تراث البحرين ومنها دواوين الشاعر الذي نحنُ في صدد دراسة نصوصه الشعرية وبخاصة في ديوانه (أنين الصواري) من خلال نصوصه الغزلية.

The Courtship in the poetry of Ali Abdulah Khalifa

Asst. Professor
Jassim Ghali Romy Al-Malky
Basra University/ Centre for Basra and Gulf Studies

Abstract

The purpose of this study (courtship in the poetry of Ali Abdulah Khalifa) is to know the development of this kind of poetic art and also to understand the relation of this art with the poetry of courtship of the old poets; and also to discover the directions of this art.

The poetic movement in Al-Bahrain has been developed greatly after the foundation of publishing and press. This wind of activity encouraged people to write about poets and their works.

One of them is the poet Ali poet Ali Abdulah and in particular his book (Aneen A. Sawari).

المقدمة

إنَّ الغرض من دراسة الغزل في شعر علي عبدالله خليفة هو لمعرفة مدى التطور في هذا الفن الشعري لديه، ومعرفة مدى تلاقحه مع الشعر الغزلي عند الشعراء القدماء وذلك للكشف عن اتجاهات هذا الشعر الموضوعية وما يطرأ عليها من تطور فني في اغراضه المتنوعة. فحركة الشعر في البحرين إتسعت إتساعاً كبيراً بعدما وجدت دور النشر والمطابع التي ساهمت في نشر تراث البحرين. ومنها دواوين الشاعر الذي نحنُ في صدد دراسة نصوصه ولاسيما في ديوانه (أنين الصواري) ونصوصه الغزلية من هنا أثرنا دراسة هذا الفن وذلك لعدة أسباب منها وفرة النصوص الغزلية فيه، والأخر لبيان ذلك الجانب المهم من التراث الشعري الأصيل للبحرين، معتمدين بذلك على الجانب الموضوعي وبعناية كبيرة في سبيل التواصل إلى معاني هذه النصوص وطرق دلالتها ومعانيها وابراز الجانب الفني للتراث البحريني.

تكونت مادة البحث من مقدمة وتمهيد مختصر عن تعريف شعر الغزل وميزاته، ومبحثين مهمين هما: الأول (الغزل في قصائد علي عبدالله خليفة)، وهو الغزل الذي في معظم قصائد الديوان التي استطاع الشاعر أنْ يوحد فيها بين الغزل بوصفه فناً شعرياً ومعانيه وعنصر المديح في توليفه مشتركة بين هذين الجنسين الأدبيين. أما المبحث الثاني هو (اغراض اخرى في غزله). جاء في التحدث عن الشكوى والهجر ووصف الديار والحرمان وتشبيهه الحبيبة بالاماكن الأخرى.

وقد كان منهجنا قائماً على التحليل والاستنباط لكلِّ مقومات عنصر الغزل في القصيدة الغزلية أو المقطوعة منها. ومن الله السداد والتوفيق.

التمهيد

التعريف بالغزل: هو غرض من الأغراض الشعرية في الشعر العربي قديمهُ وحديثهُ، وهو شعر وجداني يعبر عن الاحاسيس الكامنة في كوامن الحب الداخلي لدى الشاعر المتغزل، أكانت شعراً وصفياً يصور المظاهر الخارجية، بل هو استحضار لمدة قَدْ مضت مفرحة كانت أم مأساوية لدى الشاعر، قد يترك لديه لهفة أو لوعة في القلب لا يستطيع أن ينساها أبداً[١].

وقد يصور الشاعر في هذا الشعر: ((العاطفة الانسانية السامية والخالدة أيضاً تلك هي عاطفة الحب الأنساني بأجمل مظاهرها، على أن ابرز خصائص هذا الشعر الغزلي أنَّه ينبع من روح الشاعر ذاته، فضلاً عن أنه يصور الآمه ومشاعره وفرحه وظروف حبه))[٢].

لذا نجد ان الشعراء قديمهم وحديثهم قد اشتهروا بهذا الفن الشعري المتأصل جاعلين من المرأة العربية رمزاً لغزلهم العذري أو الماجن، لاحتسابهم أنها اللغة أو لغة ((الجمال المشتركة التي يلتقون عندها ويشتركون فيها جميعاً، ويتحدثون بها ويجسدون الحديث كل بالخط الذي قدر لهُ أنْ يكون واقعاً ملموساً))[٣].

أي ان الشاعر هنا جعل المرأة رمزاً فريداً لغزله، مصوراً حبه ولوعته وأشتياقه لها ويكون هذا الحب مستوراً أو مصرحاً به وهذا ما عرفناهُ في قضية قيس بن الملوح وليلى العامرية، لذا نجد الشاعر يصور هذا الغزل، إذْ: ((يتغزل ليعبر عن عاطفة الحب للمرأة كما يراها لا كما يراها غيره، وهو في الحالتين يصور مشاعره، ويصف الآمه وأماله ويكشف عما يختلج بقلبه ويعتلج بنفسه هذا الحب الكامن في قلبه وعقله))[٤].

في حين نجد ان كثيراً من شعراء العرب قديماً وحديثاً استرسلوا في هذا الفن الشعري الأصيل ((وهو أمر طبيعي إذْ أنه أرحب ميادين القول وفيه يثبت الشاعر عواطفه ولواعجه، ويستعرض مخيلته الشعرية، ويفتن في المعاني والصور، ورقة الأسلوب لذلك قَلْ أنْ نجد شاعراً لا يقول شعراً في الغزل))[٥].

المبحث الأول: الغزل في قصائد ديوان علي عبدالله خليفة:-

لقد عرض نقاد التيار التقليدي في منطقة الخليج العربي ومنطقة البحرين بشكل خاص لشعراء الغزل، بوصفه شعراً متميزاً قائماً على بيان الحب واللوعة والشجون الذي يتوقد في قلب الشاعر ولواعجه، مثلما عرضوا لبقية الأغراض الأخرى في الشعر، ونجد هذا الشعر قد جاء عندهم على نوعين مهمين من الغزل هما: الغزل في مقدمات القصائد والثاني الغزل متعدد الأغراض[٦].

أما النوع الأول أي مقدمات القصائد فهو الغزل الذي كان ينشد أو ينشدهُ شعراء هذه المنطقة، أي منطقة الخليج العربي والجزيرة العربية والبحرين ولاسيما في مدح الأمراء والسلاطين والملوك وغيرهم. وتكمن في المديح حيث يحاول الشعراء في بعض القصائد أنْ

يوحدوا فيها الغزل بوصفه فناً شعرياً ومعانيه وبين عنصر المديح بتوليفة مشتركة بين هذين الجنسين الأدبيين في وحدة شعرية غزلية متكاملة[٧].

وسوف نعرض لذلك النوع من الشعر في قصائد الشاعر علي عبدالله خليفة من خلال ديوانه ((أنين الصواري)) من جانب الحصر. ونبين تلك الناحية الموضوعية الحسية، أي وصف عواطف الرجل تجاه المرأة في حبه لها وولوعه وهيامه بها وما يجده في حبها من الألم والعذاب والقهر واللوعة، الذي ينتج عن الفراق المعيشي لهؤلاء الشعراء الناتج عن اختلاف بيئاتهم وأزمتهم ويأتي ذلك متزامناً مع ما يسجلونهُ في أشعارهم، فقد جاء في أغراض الرحيل أي رحيل المحبوبة معبراً عن معاني هذا الغزل.

وتجسد ذلك قديماً في معلقة امرئ القيس ووصفه رحيل حبيبته، ويكون هذا في عدم ذكر اللقاء بين المحبوب وحبيبته بصورة مباشرة، بحيث أصبح ماضياً[٨]. لذلك نجد ان قصائد هؤلاء الشعراء على تنوعها وكثرتها، ليس فيها من الاوصاف أو الاشارات على ما يدل على أمرأة بعينها ولكن يغلب فيها أنْ يكون عن أمرأة عامة وليست محددة تكون رمزاً لهذا الوصف لدى الشاعر. وقد تكون هناك بعض القصائد يرد فيها بعض الاسماء ولكن يكون ذلك من جانب الحب العذري أو الغزل العذري مثل (ليلى، وسلمى، ومي، وسعاد، وعزة) وينتج عن ذلك أنْ تكون الاسماء في هذا النوع من الغزل ان تصبح اسماء شائعة غير ذات أهمية في بيان اسم المرأة على ان تصبح رمزاً في هذا الفن الشعري المتأصل، فهي لا تدل على امرأة معينة بنفسها أو ذاتها[٩]. فضلاً عن الماضي الحزين والفراق فأن هذا الشعر يكثر فيه ذكر للرقباء والوشاة الذين يتتبعون المحبين ويتقصون أخبارهم، ويتفنون في اشاعة اسرارهم على ألسنة الناس: ((وشعراء هذا الغزل حريصون على التخويف من هؤلاء الوشاة والرقباء، وكأنهم بذلك ينسبون إليهم فيما يفرض على هؤلاء المحبين من فرقة وقطيعة ورحيل))[١٠].

وقد وجدت هذه الخصائص الأنفة الذكر ممزوجة في قصائد ديوان أنين الصواري للشاعر علي عبدالله خليفة، بحيث يصعب على الدارس أو المتتبع لها أنْ يقرر هذه الخاصية أو تلك إقراراً خاصاً يستطيع من خلاله بيان حالة عن أخرى. وفي قصيدة للشاعر اسماها (صدى الاشواق)، يصف فيها لقاء الحبيبة حبيبها بعد فراق طويل في رحلة

الغوص او موسمه واصفاً اشتياقها ولوعتها تجاه حبيبها بطابع تراثي جميل متغزلة به إذ يقول[١١]:-

زغردي يا خالتي... يا (أمُّ جاسم)
زغردي قد عاد طرَّاقُ المواسم
جهّزي الحنَّاءَ، هاتي الياسمينْ
هاكِ ماءَ الوردِ والعُودَ الثمينْ
عطِّري (البشتَ*) وأعطيني الخواتمْ
طِفت البشرى بأهل الحيَّ... قومي
واتركي عنكِ تعِلاَّتِ الهموم
ساعديني، رتبي عني المساند
وأنثري المشمومَ والاشواقَ في كل الجوانب
وأصيخي السمعَ (للهُولو*).

الشاعر هنا يصف اشواق والتياع الحبيبة تجاة حبيبها باسلوب غزلي يحملُ طيات التراث الشعبي والطقوس التي تجري عند مجيء البحارة من رحلة الغوص ومدى الشوق واعماق الفراق الطويل وانقضاء هذه الرحلة ورجوع الغواصين الى يبوتهم واستقبال أهل الحي لهم بالطبول والزغاريد، تاركين جميع هموم الحياة متجهين الى الافراح بصورة تحملُ كل الاشواق والعطر الجميل في كلِّ جوانب البيوت فرحاً بهم.

ويصف في مقطوعة أخرى من القصيدة نفسها اشتياق الحبيبة لحبيبها وباسلوب غزلي غاية في الدقة والتصوير، إذْ يقول[١٢]:-

يا لَفرحي... ساعةُ اللُّقيا دَنتْ!!
كم جميلٌ كلُّ ما حولي، حبيب
كلُّ من حولي، وقلبي
طفلةٌ مزهَّوة والأفراح في ليل الموالِدْ
هلْ تُرى كلُّ نساء الحيّ مثلي؟...
في اندفاعي؟

عندهنَّ اللهفةُ الهوجاءُ في حَرِّ التياعي؟

واشتياقٌ لو تعرَّى

بانَ مجنونُ الرغائب؟

ما الذي ألبسُ يا مرأتي الرعناء... قُولي

(نَشْيِلِيَ*) المزدات بالنجماتِ والكمُ الطويل؟

أم تُرى ذلك أنسب؟

هنا تستقبل الحبيبة حبيبها بالفرح واللهفة كأنها طفلة صغيرة وهي في مولد ليلي من موالد الستة المتعددة واصفة اندفاعها القوي والتياعها هل هو فردي أو ان نساء الحي مثلها في هذا الاندفاع محاكية مرآتها ان ترشدها لذلك اللبس واللقاء هل النشل المزين أو غيرهُ من الملابس الأخرى الذي هو الزي الرسمي للنساء في مواسم الأفراح والاعياد استعداداً لملاقاة حبيبها العائد من هذه الرحلة وباسلوب غزلي غاية في الدقة.

وفي مقطع آخر من القصيدة ذاتها يصف الشاعر الحب الذي يجمع الحبيبة مع حبيبها في صدى الاشواق إذ نقول لهُ واصفة ذلك الحب واللقاء باسلوب غزلي واضح وكما في الابيات[١٣].

يا حبيبي...

سوفَ أحكي لكَ عنْ شوقي جِهاراً...

عن جنون الصبية اللاهينَ في حقلٍ توارى

خلفَ كثبان الرِّمالْ

وعنِ العينِ وضحكاتِ الصَّبايا

دُونما أي اتزن

عن نخيلٍ أرطبتْ قبلَ الأوان...

عنْ حكاياتِ الزمانْ...

عنْ (مُرداة*) العذارى

عصرَ يوم العيدِ... عن كلِّ السهارى في أمانْ

هنا الحبيبة تصرح لحبيبها عن حبها واشواقها لهُ جهاراً من دون كتمان أو توجل الحديث عن ذلك الحب الذي يدور بين المراهقين الذين يخافون ان يبوحوا بهذا الحب وكأنهم أطفال صغار لا يعرفون شيئاً عنهُ ، وعبر بالنخيل عن حالة الحب قبل البلوغ في لحظة من الزمن تشبه الحكايات القديمة التي تحكيها الأمهات الكبار لصغارهن في بعض الليالي حتى يناموا، وكذلك بعض الرقصات الشعبية التي كانت تؤدى في الأفراح والمناسبات كالاعياد والمواليد والسهرات العائلية آنذاك.

ويؤكد هذه الحقائق والصور الحسية في مقطوعة أخرى من قصيدة (زغب الطيور الجارحة)، مصوراً فيها دمع حبيبته وحزنها متغزلاً بها في جوٍ من الحشمة والطهر إذْ يقول(١٤):

كفكف الدَّمعَ حبيبي....
وامسحِ الحزنَ بافراحٍ كبيرةً
أنت في قلبي، وفي عيني،
وفي عُمريَ... أمال حطيرةْ
أنت زحفُ النُّور في هذه الجزيرةْ
أنت موجٌ كاسحٌ يلقي هديرهْ
يا أسى لحنِ المواويل الكسيرةْ
يا مزيج الحقد باللوَّعةِ
في عدلِ الشَّقاءْ
يا مُنى عُمري أراكْ..

هنا يكرر اسم الاشارة أنت دلالة لتأكيد حالة معينة وهي الحب الأبدي الذي يجمع بينه وبين حبيبه في بنية غزلية غاية في الدقة في الافراح والاحزان التي تلم بهما في هذا الكون الواسع مهما تكون الأمور التي تلم بهما.

وحينما نسترسل في قصائد شاعرنا ولاسيما في وصفه لمشاعره الملتاعة تهيجاً تجاه من يحب، حين لا يستطيع الشاعر إبقاء ذلك سراً فهو يردده في أبيات تكون لها الصدى المدوي

تجاه من يحب فهو يصف ذلك من خلال قصيدته (بذور الأرض الواهبة)، إذْ يقول في مقطع منها[١٥]:-

وأنا الهَضيمْ،
وليسَ لي إلا العَراءْ
إني نويتُ، وما لديَّ سوى الرَّجاءْ
خُذني إليكَ وخُذْ حنيني والثيَّاثْ
روني يا بحرُ ملحاً، وأجلُ همَّ الامسيات
وأنا الهضيمُ أنا الهضبمُ...
حَّتى الممات
يا زارعاً في الأرض أشتاتَ النَّباتْ
أنا الهضيمْ
وأنا الحياةُ... أنا الحياة

الشاعر هنا يحسُ بلوعة الحب ومشقته بوصفه أنساناً مهضوماً في حياته وحبه لا يملك الا العراء سقفاً يجمعه مع من يحب في متاهات الزمن الصعب فيقول لحبيبته خذني إليك وخذ حنيني وكل شيء تريد، روني حتى الملح راضياً بذلك حتى الممات، لكنَّه يقول أنا الهضيم وسبقى أعيشُ للحياة ولكل شيء في هذه الدنيا.

ويصف طيفها الذي لا يفارقه وانه ظلَّ معهُ وباقٍ في مخيلته، وأنه يبقى سهران لا يقوى على النوم، وقد جاء ذلك في قصيدته (السيف وصهيل الكلمات) إذ يقول في مقطوعة منها[١٦]:-

أغمضي عيني قليلاً
ثُمَّ غنِّي
وأسكبي في الجَفْن أطيافَ الوَسَن
تعَبتْ روحيَ صَحْواً
وارتمى في حُضنِكِ الشَّافي البَدنْ
كلُّ شيءً جفَّ يا عُمري، فإني
أشعُر الشوكِ غزاني

وتَدَّبى واعتلى جَوفَ حياتي

أشعُر اليومَ حريقاً مُستبداً

بوُجودي وكياني

خجلتْ روحي صمتاً

يؤكد حقيقة ان طيفها لا يفارقه في حله وترحاله في سكنه ونومه في إبتعاده عن أهله وعن جريانه، ولكنه يصف الفراق بانه قدر محتوم لكل انسان في هذه الدنيا بينه وبين حبيبته ينتهي بالممات تاركاً حبيبته للمجهول.

وترى كذلك في قصائد الغزل نوعاً من جانب المبالغة والتشويق ووصف الحب العذري وموقف أصحابه من هذا الحب، إذْ يقول في مقطع من قصيدة (السيف وصهيل الكلمات) واصفاً ذلك الشيء[١٧]:-

تمنَّيتُ أرتْواءْ

يُنعشُ المنهومُ في اعماقِ ذاتي

أعطني بَسْمةَ صِدقٍ

تملأ العُمرَ الخواءْ

تملأ الجدْبَ أخضراراً

وتواسي بُحبةً همساتي

إسقيني كاس حنانٍ وشجنْ

أشطري الهمَّ، وهاتي

فوق حُزني...

فوق أحزانِ الوطن

الشاعر يعبر عن غزله بإسلوب المنى إذْ يتمنى ان يرتوي من وجهة حبيبته ولو ببسمة من فمها الجميل تعيد لهُ العمر من جديد بعد ما أصبح جدباً تعيد له اخضراره من جديد مواسية إياهُ وهو في هذا العمر الهرم، ولو بسقيا حنان تشطر الهم معهُ وتردَّ لهُ عبق السنين وهذا واضح كما في أعطني وتملأ العمر، وتملأ الجدب وإسقني واشطري وكلها تدل على تقاسم الهم والأحزان في هذا الواقع المرير.

وكان لهؤلاء الشعراء الحرص ومنهم شاعرنا على تسجيل عواطفهم المسرفة نحو هؤلاء المحبوبات المجهولات إنْ يلحوا على ذكر الفراق والرحيل، وكأنهم بذلك يريدون أن يؤكدوا إلى أي مدى كانت عواطف الحب تلهب مشاعرهم، فيقول في مقطع من قصيدة (شمس المفاوز)[١٨]:-

حبيبتي...

أنا الغريبُ ها هنا..

مع الصخور في مرافي الشَّجَنْ

مسافرٌ بلا وطنْ

وغُربتي يتيمةٌ بلا نَسبْ

ضربتُ في البلاد... طولها وعرضِها

مُحمَّلاً بثقلها

بسورة الحنين، واختلاجةِ القَلقْ

بكلِّ ما انكفا بداخَلي

وكلِّ ما احتّرقْ

عَدّوتُ بالضياع في مجاهل الضباب والألم

يذكر حبيبته دونما يسميها ويقول لها أنا الغريب هنا في كل وادي وكلِّ مرافئ باحثاً عنك أحمل الشجن واللوعة، كالمسافر يجوب البلدان باحثاً عن وطن يجمعهُ معك وكأنه بلا نسب إليه حتى في بلادهُ أو وطنه الذي عاش فيه فهو قلق لا يعرف ماذا يفعل في جو من الضباب والعتمة يعصرهُ الألم.

في حين نجد ان الغزل عند هؤلاء الشعراء ومنهم شاعرنا أي الغزل الخالص، قدْ توزع الى بعض النماذج التي تشكلت منها القصيدة الغزلية لديهم، من حيث الوقوف على الاطلال ثم الجنوح الى الغزل فيما بعد، وهو الاسلوب القديم في الغزل بوصفه الموضوع أو الغاية الأصلية وتركز ذلك في شعر المديح أيضاً، فهذا الشاعر علي عبدالله خليفة يقول واصفاً هذا المشهد مبتدئاً غزله بالوقوف على الاطلال ثم التغزل بحبيبته[١٩]:-

حبيبتي... حبيبتي،

خُذي إليكِ ظامئاً
يُقلبُ الرمالَ والصَّخَرْ
ويرقُبُ السَّماءَ وعلَّها..
وعلَّ قَطرةً
من الحنان تطفئُ السَّعره
أودُّ لو ينامَ خاطري
كطفلةٍ
تعبَّ من عطاء المرمر
أودُّ لو أريحَ ما بدا من الوَصبُ

لم يصرح باسم حبيبته ولكنه اكتفى باشارة لها في بداية المقطوعة يقول لها اسقيني من عينيك الجميلتين، وهو يقلب الرمال وبعض الصخور وكل هذي تدل على الاطلال ذاكراً حبيبته ويرقب السماء لعلها تسقط عليه شيء من المطر حتى يرتوي من الظمأ أو يسقى من حنان حبيبته نظرة تطفئ سعير النار الذي في صدره وينام من كدر هذا العيش كالطفلة التي تنام من التعب.

وقد صور شاعرنا الأمه ولوعته واحزانه في قصة غزلية يشوبها الحزن والألم من عناء الحب وسيطرته عليه حينما ابقاهُ نحيلاً خائر القوى لا يستطيع الحركة معذباً إذْ يصف ذلك في قصيدة اسماها (أنا جرح قديم) إذ يقول فيها[٢٠]:-

وماتَ الحبّ... ماتت رعشتي الأولى
وهَّبتْ يا بقايا الأمس، أنواءٌ شتائيةْ
حَملنا الخافقَ المذبوحَ، وانَسرَبتْ
بنا في الليَّلِ أصداءٌ لمرثيَّة
فابحرنا بلا زادٍ، وكانَ الصَّبرُ موّالاً
لا شرعتي... وأحزاني الخريفية،
نَعَمْ، ماتَ الذي تعنينَ من زمن
وخابَ الظَّنُّ، وانكسرَتْ

مرايا الشوقِ مَرمْيَّهْ

هنا الشاعر يصور موت حبه وفي رعشته الأولى كأنما الانسان يموت في صقيع ليلة شتائية باردة كأنه مذبوح من هول هذا الحب ويكون عبارة عن مرثية في زمن الحب الأبدي مصوراً حالة كأنه بحار باشرعة ممزقة بالية كشجرة في موسم الخريف دونما أوراق تغذيها كنية عن الجدب وانحسار الحياة.

وفي قصيدة أخرى من ديوانه اسماها (على رصيف المحطة) يصف فيها غزله وحبهُ لحبيبته كأنه القطار حينما ينطلق من المحطة مسافراً الى بلد أخر انه يمرُّ في محطات وهي كسنين العمر المتعاقبة با فراحها واحزانها، إذ يقول في مقطوعة منها[٢١]:-

قطارٌ الحبِّ يا قلبي، تراهُ فاتَ أمْ طوَّلْ؟

أمِ الساعاتُ خانتنا، فما عادت كما الأولْ؟

هل الاحزانُ عرَّتنا،

فَجُنَّ الشوق ملهوفاً ولم يكمَلْ؟

أمِ القضبانُ قد حملتْ

قطاراً مرَّ من زمنٍ، فلم نَرْحَلْ؟

متى نرْحَلْ؟

فهذي الوقفةُ الخرساءُ قدْ ضاقتْ بأيامي

وهذه الوحشةُ الصَّماءُ تُرهقني...

يصف العمر في سنيه كقطار يمرُّ من محطة إلى أخرى حاملاً كل افراح السنين وأحزانها والأشواق التي يكنها الحبيب لحبيبته بلهفة عارمة دون انقطاع يريد من ذلك التواصل مع حبيبته على سبيل الاستعذاب والمحبة.

ولكنّه في قصيدة أخرى اسماها (جدول على الطرق الأخر) تحدث بطابع غزلي حزين عن حبه وشجونه والنار التي في جوفه تحرق قلبه الحزين، وهو يعاني جفوة بينه وبين حبيبته يعاني فيها التياعاً وناراً تحرق أحشائه، إذْ يقول في مقطع منها[٢٢]:-

أعاني التَّغُّربَ في موطني

- لكَ اللهُ يا ذا الحزينْ

- واحرقُ قلبي فَدى قطرَةٍ
- من الحُبِّ إنِ كنتِ لا تعلمينْ،

فمن لفوادٍ يجوبُ القفارْ...

يذوبُ التياعاً، ويغنى حَنينْ؟

يَسيرُ... يسيرُ وكلُّ الشمُّوسْ

تُسلِّطُ نيرانها الحارقةْ

فمنْ ذا يَبُلُّ صدى مُجتي،

ومن ذا يخفِّفُ وطءَ السنين؟

الشاعر ملتاعاً يمزق قلبه الألم والحزن من الحب هائماً يجوب القفار في الشموس الحارقة بحثاً عن حبيبته، باحثاً عن ماء الحب يرويه ويطفئ نار مهجته على مر سنين الفراق واللوعة.

وفي قصيدة أخرى من ديوانه اسماها (أغنية الى قلب صغير) صورة لنا قصة غزلية حزينة غاية في الدقة شارحاً فيها همهُ وحزنه يائساً من الحياة ولكنّه بعد ذلك يميل في وصفه لهذهِ القصة الى طابع الفرح والأحاسيس التي تعتريه إذْ يقول[٢٣]:-

مثلما تأتي اللَّيالي السُّودُ

تأتينا الشُّموسْ

وأبتسامٌ أُخضَرُ يأتي

ليجتاحَ العُبوُسُ

رُبَّ حُزنٍ وجراحٍ مُرَّةٍ

تُنهكُ الجسمَ لتطهير النُّفُوس

بالأحاسيس التي قَدْ تَعترينا

بُرعمٌ أنتِ على أغصان وردٍ

وشبابٌ يانعُ الخصبِ... غريرْ

طاقةُ البَذْلِ التي فيك امتطيها

وأملئي دُنياكِ حباً وعبيرْ

يؤكد حالة وهي عدم اليأس والقنوط للواقع المرير، ويدعو حبيبته الى المزيد من العطاء لديمومه الحياة والعيش الرغيد بالحب والغبطة.

وقد يأتي في شعر الغزل جانب الرقباء والوشاة لتعكير صفو العلاقة بين الحبيب وحبيبته من خلال تفشي هذا الحب على ألسنة الناس، إذْ يقول في قصيدة اسماها (أمام جدار الصمت) ذاكراً ذلك[٢٤]:-

حبيبتي...
أقولها؟... أحاذِرْ؟
أأرْقُبُ اليمينَ والشمالَ، أمْ أخاطِرْ؟
فَإنني مُغامرٌ جَبانْ
يخيفُهُ الظلامُ إنْ أتى
وإنْ بكَتْ على الجِدار نَخْلةُ الأمانْ
وإنني مكبَّلٌ على مشارفِ المَصيرْ...
بألفِ حلْقةٍ قوَّيةَ كبؤس يومنا الفقيرْ
فكيفَ أصدمُ الجدارَ عْنَوةً،
وكيفَ أن أطيرْ؟

فهو هنا يؤكد أنه مغامر جبان في بحر الحب وأنه يخافُ كلّ شيء من حوله حتى الظلام. فهو حقيقة انه محاط من كل الجوانب لا يستطيع الفرار من هذا القرار المرير وانه لا مناص من هذه النهاية المحزنة لحبه.

ويسترسل شاعرنا في وصف حبه وتغزله بحبيبته إذ يؤكد ذلك في قصيدة اسماها (الى عينين صديقتين) واصفاً عيني حبيبته بانها ظل أو الموشور عبر محراب لصلاة وكأنهما انبلاج الصبح في اشراقه وانجلاء الليل الأسود وانتشار هذا الموشور ليضيء اطراف الفلاة، وكذلك يصف هذين العينين بأنهما في حالة من الصفاة والبياض على الرغم من هذا الليل الاسود والمعتم، إذ يقول[٢٥]:-

مثُلُ عينيكِ ظلالٌ عَبْرَ محرابِ صَلاةَ
وانبلاجٌ في مدى الصُّبح

على ليلِ الحياةَ

مِثْلُ عينيك انطلاقٌ للذُّرى

وانفساحٌ مدَّ أطراف الفلاه

منْ تُرى كحَّلَ عينيكِ انتساءً بالصَّفاء؟

من ترى عَلمَّ عينيك ترانيمَ الإلهْ،

وانقطاعاً للتّملّي والرؤى...

واشتياقاتِ جناحٍ شالهُ الرّيحُ مسافِرْ!

أيُّ شيءٌ منِ رقيقِ البَوْحِ يأتي

كارتعاشاتِ فراشٍ

دار حولَ النُّور طائرً؟!

الشاعر يكرر ذلك بأسلوب غزلي حزين في تصوير عيني حبيبته وتأملاتها الحسية في نظراتها وسكناتها جاعلاً من ذلك المشهد صورة متكاملة لهذا الوصف.

وفي مقطع أخر من القصيدة نفسها يصور لنا حبيبته بحلة متكاملة في طولها وشعرها في ابتسامتها وفي اطلالتها وقوامها وفي شبابها وكذلك في فرحها وحزنها، إذ يقول[٢٦]:-

أيُّها الحسنُ الذي مَسَّ الشَّغافْ

يا حريرَ الشَّعرِ، يا حُلوَ انعطافْ

يا ابتساماً جاءَ عَفواً

فَتَحلىَّ وأضافْ

يا ربيعاً جاءَ بالخصْبِ،

وأدنى بالقِطافْ

يا شبابَ الزَّهرِ مفتوناً

بباقاتٍ لِطَافْ

هَلْ تُرى عاشَ لدَيكَ الحُزنُ،

أو مَرَّ عليك؟

فهو يصفها فرحة مسرورة طويلة بوصفها غصن بان، شعرها حرير ناعم متدلي على كتفها وانها ميتسمة ابتسامة عفوية، وان اطلالتها كالربيع الأخضر بكل جماله وحلاوته، وان شبابها مياساً كالزهَّر في لونه وعطره وجماله، وانه بعد ذلك يسألها هل مرَّ عليك الحزن وكدر صفو عيشك الجميل.

المبحث الثاني: موضوعات أخرى في غزله:

لقد عالج شاعرنا علي عبدالله خليفة أموراً أو موضوعات أخرى في غزله، منها قد يكون للوعي والفراق والانتظار، وكذلك ذكر الاماكن التي توجد فيها حبيبته وبعض قصص الحب التي عاشها العشاق واسباب الافتراق. إذْ يقول في قصيدة له اسماها (انتظار) يؤكد فيها جُنَّ اشواقه تجاه حبيبته وما أعتراه من الكدر والخوف والاضطراب والأسى في وصف غزلي لهذا المشهد، إذ يقول في مقطع منها[٢٧]:-

جُنَّ شوقي، يا حبيبي وأستَعرْ
وفؤادي ذابَ مِن فرطِ الكدَرْ
واعْترى نفسي أضطرابٌ، فاتَروَتْ
بالأسى تجترُّ ساعاتِ السَّهَرْ
وظنوني مثلَ أشباح الدُّجى
تتلوَّى كُلَّما اللَّيلُ اعتكَرْ
والتياعي زادَ من وَقْدِ اللَّظى
فَتنَزَّى جرحيَ الغَافي بحرْ
وارتمى صبري منهوكَ القوى
بَعدَ أن طالَ انتظاري واستمرْ

يؤكد انتظاره وسهده الليالي وما يعتريه من ظنون تمرُّ عليه الاشباح مؤكداً صبره وما يعتري قواه من ضعف بعد انتظار طويل ومشقة كبيرة عانى منها في ساعات السَّهر والترقب عبر الليل الطويل.

ولهُ قصيدة أخرى في ديوانه اسماها (حدثيني)، يذكر فيها مكان حبيبته واشواقه إليها واصفاً ليلهُ وطوله، وقد أطلق عليها اسماً لتمويه وهو (هيفاء)، وما اظناه من وجد واشتياق ولوعة، إذ يقول في مقطوعة منها واصفاً ذلك[٢٨]:-

قَدْ حوانا اللَّيلُ
والأشواقُ في الأحداقِ تَوحي
حدّثيني يا مَهَا نجدٍ
باشعارِ التُّروحِ
واسكُبي عَذب حديثِ النَّفسِ
في قلبي وروحي
أسمعيني هَمْسَكِ المغْناجَ،
يا هيفاءُ بوحي..
بالذي أضناكِ منْ وجدِ،
ومن توقِ الطمُّوحِ
حِّدثيني، وأفيضي...
تملَّها تُشفى جروحي

يذكر ما دار بينهُ وبين حبيبته من حديث شاعري وهمس طويل وما اضناهُ من وجد في سبيل الحصول على هذا اللقاء المرتقب، ويؤكد كذلك ان هذا الحديث والهمس علهُ يكون السبب في شفاء جروحه التي خلفها هذا الفراق واللوعة والحرمان.

ومن الموضوعات التي طرقها الشاعر الحب والهوى والفراق ما تخلفه قصص الحب المأساوية من فواجع وكأنها البحر تغرقه إذْ يقول في قصيدة لهُ في هذا الشأن اسماها (لن أهوى) واصفاً ذلك[٢٩]:-

ولنْ أهوى
لأنَّ الحبَّ يفجعني، وينزُفني إلى القاع
لأنَّ محَّبتي بحرٌ
فمنذا يرتفي بحراً يُغرِّقهُ...

لكي يَهنا بإمتناعِ

ولنْ أهوى... وأُمعنُ في مُغالاتي

لأنّي أرتمي كُلّي على قلبي

وأعصرُ طاقاتي

وأبحرُ في دُنى حبّي

بلا ريح تعِّوقني، ولا حَبلٍ بمرساةٍ

يصور الحب بحر في عنفوانه وقوته وامواجه التي لا ترحم من يبحر فيها، وكأن مصيرهُ الغرق مهما تكون طاقاته وعليه ان يكون بحاراً قوياً كلما أزدادت قوة الموج أو الحب تجاهُه.

وفي موضوع أخر من موضوعات الغزل قد يصور الشاعر محبوبته وكأنها باقة من الازهار أو ربوة خضراء أو كأنها القمر في الليل والشمس في النهار على سبيل الوصف المجازي إذْ يقول في قصيدة لهُ اسماها (خذيني) واصفاً ذلك[٣٠]:-

يَمُرُّ العامُ تلوَ العامِ، لا أدري!!

ولأشيءٌ يذكّرنُي

بأنَّكِ ها هنا قُربي

على قيدٍ من الخطواتِ، تسِعُفي

مرا شفُ وِردِكِ العَذْب!!

أنا يا باقة الأزهار، منطرِحٌ

خُذي عنّي صقيعَ اللّيل..

ضُمّيني

وصُبّيّ الخِصبَ ميلاداً على الجْدبِ

خُذيني بينَ زَنْدَيك....

ورويني

يؤكد أنه موجود فيمر العام تلو العام وهو لا يدري ولا شيء يذكرهُ بان حبيبته في قربه وهي على بعد خطوات منهُ، وانها باقة الازهار النظرة باعثة عطراً ذا رائحة جذابة، تستهويه، وتزيح عنهُ كوابيس الظلام والعتمة، متغزلاً فيها غزلاً حسياً غاية في الدقة والوصف.

ومن الموضوعات الغزلية التي طرقها شعراء التقليد في الخليج العربي وفي غزلهم بخاصة موضوع الغزل عبر جهاز الهاتف، وهذا ما فعله شاعرنا علي عبدالله خليفة إذْ يصف ذلك في قصيدة اسماها (همس في ضنى الصمت)، يقول فيها[٣١]:-

مساءَ اليومِ أنَعشَّني
وزغرَدَ في تَلاحيني
حديثٌ منكِ عبرَّ السَلكِ، أحَسُهُ
غناءَ الطّير مزهوَّ التَّلاوينِ
وفاَجاني كلامكِ يا مُغنّيتي
كما يأتي شعورٌ بالهنا يوماً...
علي حينِ
وَمزَّقني أسى بُعْدِ يؤرَّقنُي
وبين البُعد خطواتٌ مبعثرةٌ...
تناديني
ومَرَّ الوقتُ، لم ألحَقْ!!
وما قُلتُ الذي في القلبِ يضنيني

الشاعر يصور لنا مشهداً غزلياً جميلاً عبر الهاتف، إذْ يصف ذلك في مساء ليلة من الليالي التي عاشها واذا بحبيبته تتصل به عبر الهاتف وبصوت يشبه تغريد البلابل على غصون الاشجار وهي متجمعة وباصوات متنوعة، ولكنَّه بعد ان سمعَ صوت حبيبته كأنما عادت لهُ الحياة من جديد، بعدما عاش من أسى وبعد قاتل جعلا منه شخصاً محطماً لا يقوى على العيش والفراق نتيجة هذا الحب والاشتياق.

ونجدهُ في قصيدة أخرى من قصائد ديوانه اسماها (عندما يأتي) يصور حبه لحبيبته وعطرها وقوامها ومكابرته في حبها وصمته وجلده واشواقه في حلة غزلية غاية في التصوير إذْ يقول[٣٢]:-

أنا يامَنبَعَ الأعطارِ، لا أقوى
على بوحِ الذي في القلْب من وَجْدِ

فأشقى حاملاً المي، وحرماني
ولا عندي لهذا الحُبِّ مِنْ حدِّ
أعذِّبُ خافقي عمداً، وأخرسُهُ
مُكابرةً، بهذا الصَّمتِ والجَلْدِ
وأدري أنَّهُ يشقيكِ أنْ تبقى
كما نحنُ مِنَ الأشواقِ والبُعدِ
وأدري أنَّ هذا القلبَ لن يَرضى
بهذا الحالِ في قلقٍ وفي سُهْدِ

نستنتج مما تقدم ان لغة الخطاب الغزلي عند الشاعر علي عبدالله خليفة هي سائدة عند أغلب شعراء الخليج التقليدين الذين تغزلوا بمحتوياتهم، فهم تارة يتبنون لغة غزلية خالصة، واخرى ممزوجة بالمديح والغزل، وأحياناً أخرى بالاخواتيات والصداقة والشكوى من الحبيب، وبعضها خالصة للديار والربع والرحيل والشكوى من المحبوب ولغة الغزل الصافية. ولكن ذلك كله لا يقلل من جهوده الشعرية التي خص بها فن الغزل بأنه من الفنون الشعرية الاصيلة. ولهذا فان شعر علي عبدالله خليفة قد حفل بهذه الأوصاف الشعرية جميعها ولا سيما في معظم قصائد ديوانه قيد الدراسة.

نتائج البحث

من خلال دراستنا لشعر الغزل عند الشاعر علي عبدالله خليفة وفي ديوانه (أنين الصواري) توصلنا الى النتائج الآتية:

١- يعد شعر الغزل من الأغراض الشعرية في الشعر العربي قديمه وحديثه، فهو يصور الأحساسات الكامنة لدى الشاعر، والعاطفة الإنسانية بأجمل مظاهرها وهو ينتجُ من روح الشاعر ذاته من تصوير الآمه ومشاعره وفرحه وحزنه وظروف عيشه الأخرى.

٢- لقد جعل الشاعر علي عبدالله خليفة من المرأة رمزاً لغزله شأنه في ذلك شأن الشعراء الآخرين قديمهم وحديثهم مصوراً بذلك حبه لها ولوعته وهيامه بها، وقد يكون ذلك حباً مستوراً أو مباحاً به.

٣- كثرةً أنواع الغزل في ديوانه وبخاصة ما وجدناه في معظم قصائده الغزلية والمدحية التي درسناها في متن البحث.

٤- اتضاح الناحية الموضوعية والحسية، أي وصف عواطف الرجل تجاه المرأة في حبه لها وولوعه وهيامه بها، وما يجده في حبها من الألم والعذاب والقهر واللوعة الذي ينتج عن الفراق المعيشي لهؤلاء الشعراء الناتج من اختلاف بيأتهم وأزمنتهم.

٥- نجد في قصائد شاعرنا وعلى تنوعها وكثرتها، ليس فيها من الأوصاف والاشارات ما يدل على امرأة بعينها، ولكن يقلب الحديث لديه ان يكون فيها عن أمرأة عامة وليست محددة تكون رمزاً لهذا الوصف لدى الشاعر. وقد تكون بعض قصائده ترد فيها اسماء مثل (ليلى، مها، سعدى، عزه، هيفاء).

٦- نجد ان الشعر الغزلي عند شاعرنا كثر فيه ذكر الرقباء والوشاة الذين يتعقبون المحبين، وقد جاء على نسق الشعر القديم، لذا فهو حريص كل الحرص على الخوف من هؤلاء الرقباء والوشاة في شعره وبيان الفرقة والقطيعة.

٧- اكثر شاعرنا من المبالغة والاسراف في وصف جمال المرأة وفي تصويره لها وحبه لها وولعه بها. واغلب شعره الغزلي قد صاغه في لغة مجازية متكلفة.

٨- حرص شاعرنا على ربط عنصر الغزل بالمديح والعكس صحيح، ويكون هذا الربط ربطاً فنياً غاية في الروعة والابداع متأتي من النظم الموسيقي الذي ينبعث من قصائده التي يتحدثُ فيها عن الشكوى والهجر والحرمان ووصف الديار وان هذه القصائد تجسدت في شعر القدماء أيضاً.

٩- لقد تحول شاعرنا في بعض قصائد غزله الى غزل لا علاقة له بتجارب عاطفية، كالتغزل بالديار، ويشمل الحنين لها وتحولت تلك الأوطان الى كائن حي أو أنساني أو يحولها الى أمرأة محبوبة يهيم بها وبحبها.

١٠- لقد كانت لغة الخطاب الغزلي عند شاعرنا، تارة لغة غزلية خالصة وأخرى ممزوجة بالمديح والغزل، وأحياناً ممزوجة بالأخوانيات والصداقة والشكوى من الحبيب، وبعضها خالصة للديار والربع والرحيل والشكوى من المحبوب والهجر، ولكن هذا لا يقلل من جهوده الشعرية الرائعة التي خص بها شعر الغزل.

هوامش

١- ينظر: الغزل تاريخه واعلامه، جورج غريب: ٩-١٠.

٢- غزل بشار بن برد دراسة فنية، خليل كاظم غيلان الزهيري، رسالة ماجستير على الآلة الكاتبة: ١.

٣- تطور الغزل بين الجاهلية والاسلام، د. شكري فيصل: ١٧٩.

٤- الغزل في العصر الجاهلي، د. احمد محمد الحوفي: ١٤.

٥- غزل بشار بن برد، دراسة فنية: ١-٢.

٦- ينظر: الشعر الكويتي الحديث: ٩١؛ ينظر: تطور الغزل بين الجاهلية والاسلام، د. شكري فيصل: ١٤٥.

٧- ينظر: الحركة الشعرية في الخليج العربي بين التقليد والتطور: ١١٣.

٨- ينظر: المصدر نفسه: ١١٤.

٩- ينظر: الحركة الشعرية في الخليج العربي بين التقليد والتطور: ١١٦. ينظر: الغزل في عصر صدر الاسلام (حسن جبار حمد)، رسالة ماجستير، ١٩٨٨م: ٥.

١٠-ينظر: المصدر نفسه: ١١٣.

١١-ديوان أنين الصواري (علي عبدالله خليفة): ٤٧ – ٤٨.

- البشت: عباءة من الصوف مشغولة الاطراف بالقصب يرتديها الرجال.
- الهولو: لحن الغوص المشهور.

١٢-الديوان: ٤٩ – ٥٠.

- النشل: زي من الازياء الشعبية الجميلة التي كانت ترتديها المرأة في الخليج.
- المرداة: رقصة شعبية مشهورة، تؤديها النساء فقط.

١٣-الديوان: ٦٧.

١٤-الديوان: ٩٧ – ٩٨.

١٥-الديوان: ١١٠ – ١١١.

١٦-الديوان: ١١٢ – ١١٣.

١٧-الديوان: ١٢٧ – ١٢٨.

١٨-الديوان: ١٣١ – ١٣٢.

١٩-الديوان: ١٤٨ – ١٤٩.

٢٠-الديوان: ١٥٦ – ١٥٧.

٢١-الديوان: ١٦٨ – ١٦٩.

٢٢-الديوان: ١٧٢ – ١٧٣.

٢٣-الديوان: ١٧٥ - ١٧٦.

٢٤-الديوان: ١٧٨ – ١٧٩.

٢٥-الديوان: ١٨١ – ١٨٢.

٢٦-الديوان: ١٨٥ – ١٨٦.

٢٧-الديوان: ١٨٨ – ١٨٩.

٢٨-الديوان: ١٩٣ – ١٩٤.

٢٩-الديوان: ١٩٦ – ١٩٧.

٣٠-الديوان: ١٩٩ – ٢٠٠.

٣١-الديوان: ٢٠٣ – ٢٠٤.

المصادر والمراجع

- الغزل تاريخهُ واعلامه، جورج غريب، نشر وتوزيع دار الثقافة، بيروت، لبنان، د. ت.
- الغزل في العصر الجاهلي، د. أحمد حمد الحوفي، دار العلم، بيروت، لبنان، د. ت.
- الغزل في عصر صدر الاسلام، رسالة ماجستير (حسن جبار حمد)، كلية التربية، ١٩٨٨م.
- الشعر والشعراء في العصر العباسي، د. مصطفى الشكعة، دار العلم للملايين، بيروت، ط٣، ١٩٧٥م.
- الشعر الكويتي الحديث، عواطف خليفة العذبي الصباح، جامعة الكويت، كلية الآداب والتربية، ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م، المطبعة العصرية الكويت.
- الأصول الفنية للآداب، د. عبدالحميد حسن، منشورات مكتبة الانجلو المصرية، ١٩٤٩م.
- تطور الغزل بين الجاهلية والاسلام، د. شكري فيصل، دار العلم للملايين، بيروت، ط٤، د. ت.
- غزل بشار بن برد دراسة فنية، رسالة ماجستير، خليل كاظم غيلان الزهيري، كلية التربية، جامعة البصرة، ٢٠٠٣م.
- ديوان أنين الصواري للشاعر علي عبدالله خليفة، جميع الحقوق محفوظة للمؤلف البحرين، ١٩٨٢م.
- معالم الشعر واعلامه في العصر العباسي الأول، د. محمد نبيه حجامي، دار المعارف بمصر، ط٢، ١٩٧٣م.